قراءة في مخطوطة

مفتاح القرب
في آداب الأكل والشرب

● د . محمد عثمان الملا ●

هذه جولة سريعة في مخطوطة طريفة عنوانها (مفتاح القرب في آداب الأكل والشرب) ، وتقع المخطوطة في مائتين واثنتي عشرة صفحة من الحجم المتوسط ،(١) ومؤلفها هو الشيخ محمد بن عبد الرحيم ،(٢) وهي شرح منظومة في آداب الطعام والشراب ، لجد الشارح الشيخ إبراهيم بن حسن العمدي ،(٣) وتبلغ أبيات هذه المنظومة مائتان وواحد وسبعون بيتاً ، وقد بدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله وآله ، ثم أشار إلى آلاء الله التي أنعم بها على خلقه ، ومنها تعلم آداب الأكل والشرب التي ينبغي أن يهتم بها كل إنسان ، كما أشار إلى أن هذه الآداب التي نظمها موجودة في الكتب ، وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي . وقد جاءت المقدمة في أربعة عشر بيتاً منها قوله(٤)

الحمد لله الذي تفضلا   على الأنام بالنوال جملا
ثم صلاة الله مع سلامه   على النبي المصطفى وآله
وبعد فا الله الكريم المحصي   جاد بفضل ما له من محصي
فمن عظيم جوده ومنته   تعليم ما به قوام بنيته
وليس كل من عني بالأكل   يحسن آدابا أتت في النقل
وينبغي اعتناء كل آكل   بها لكي يفوز بالفضائل

ثم شرع الناظم في بيان آداب الأكل في ستة وستين بيتاً ، تبدأ ببسم الله وتنتهي بحمده وأوجب هذه الآداب أكل الحلال ، ومن سننها غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، والأكل باليد

اليمنى ، وعدم الأكل من وسط الإناء ، وبدء الأكل بالملح وختمه به ، وأكل الطعام الجامد بالأصابع الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى ، وعدم النفخ في الطعام ، وأكل التمر وترا وإبعاد نواه عن إنائه ، وعدم التربع في الجلوس أثناء الأكل ، وترك البدء بالطعام لصاحب المأدبة أو أفضل القوم ، ثم تحدث الناظم عن آداب الشرب في اثنين وعشرين بيتاً ، منها تناول الإناء باليمين ، وشرب الماء مصبًّا لا عبًّا ، وفي حالة القعود لا القيام ، وترك التجشؤ في الإناء ، ومناولة الكأس لمن يجلس إلى يمين المناول ، ثم بين السنة في وضع الطعام و هي وضعه على الأرض أو فوق السفرة . ثم تناول في عشرين بيتاً آداباً تتعلق بالمجتمعين على الطعام ، منها الحديث الطيب تأنياً للآكلين ، وألاَّ يستأثر أحد دون إخوانه بلون من ألوان الطعام ، وترك القيام على المائدة للسلام ، وترغيب المضيف لضيوفه في الأكل بلا إلحاح ، وأخذ الضيف حظه المعتاد من الطعام . ثم تكلم الناظم خلال ثلاثة عشر بيتاً عن فضيلة تقديم الطعام للإخوان ، منها أن الله سبحانه لا يحاسب الإنسان على ما يبذله فيه ، ومنها عدم ذهاب المرء لطعام لم يدع إليه . وتحدث الناظم عن آداب تقديم الطعام للإخوان ، منها تقديم ما تيسر وترك ما تعسر ، وعدم حرمان العيال منه ، ثم عرض في تسعة أبيات آداباً تتصل بالزائر والمزور ، أما الزائر فلا ينبغي أن يشترط على مزوره طعاماً إلا إذا أنس عنده القدرة والرغبة ، وأما المزور فلا يليق به أن يستفهم من زائره عن رغبته في الأكل ، بل يبادر بتقديمه إليه ، فإن أكل فحسن ، وإلا فقد ثبت له الأجر ، وخص الناظم لبيان فضل الضيافة وآدابها ستة وعشرين بيتاً ، فذكر حث النبي ﷺ عليها ، ودعوته إلى إكرام الضيف بتقديم أفضل ما عنده من الطعام والشراب من غير إجحاف بحق الأهل والعيال ، وتعجيل القرى له ومقابلته بالبشر والطلاقة ، وأن يبوأه أفضل منزل لديه ، ويهيىء له أحسن فراش ، ويعرفه القبلة وبيت الماء ، ويشرف على خدمته بنفسه . وتحدث الناظم عن آداب انصراف الضيف ، فأشار إلى عدم إقامته أكثر من ثلاثة أيام ، وأن يستأذن من مضيفه عندما يرغب في الخروج من منزله ، وأن يخرج راضياً وإن بدا بعض التقصير في حقه من مضيفه ، وأن يشيعه إلى باب البيت . وخص الناظم آداب الدعوة بسبعة أبيات ، فبين أن السنة دعوة الأتقياء والفقراء والأقرباء والجيران ، وألّا يقصر الداعي دعوته على الأغنياء بغية التباهي أو الانتفاع ، وألّا يدعو من يشق عليه الحضور . وسجل في سبعة أبيات آداب تقديم الوليمة ، فذكر أفضلية تقديم الفاكهة قبل الطعام والحلوى بعده ، ووضع كل ألوان الطعام على المائدة ليصيب كل واحد حاجته منها ، وتحدث في عشرة أبيات عن آداب إجابة الدعوة ، فذكر حثّ النبي ﷺ على تلبيتها ، وإن اقترنت ببعض الكلفة كطول المسافة أو صوم المدعو ، وألا يخص بالإجابة الغني دون الفقير ،

ثم نظم في ستة أبيات بعض آداب من يحضر الدعوة ، كالتواضع والجلوس حيث ينتهي به المجلس ، أو حيث يشير رب المنزل ، والتقيد بموعد الدعوة ، وتجنب الجلوس أمام حجرة النساء ، وعدم الالتفات إلى موضع الطعام ، وقد ختم الناظم منظومته بمثل ما افتتحها به وهو الحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ وآله ، ملتمساً العذر والصفح فيما بدا فيها من خطأ أو تقصير ، يقول(٥):

والحمد للإله في انتهاها   والشكر للمولى الذي حباها
كذا الصلاة مع سلام دائم   على نبي حض بالمكارم
فإن رأيت خطأ فأصلحن   أو غلطاً فسامحن وأصفحن

وواضح أن النظام قد استمد معاني منظومته من آداب الإسلام في هذا الموضوع المهم ، ولهذا اعتمد شارحها في المقام الأول على السنة النبوية المطهرة ، ففي شرحه لقول الناظم ـ مثلاً ـ

وادع بخير بعد أكل واطلبن   زيادة عقيب شربك اللبن(٦)

يورد أثناء الشرح ما جاء في سنن أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ : إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وفي شرحه لقول الناظم أيضاً(٧):

والنفخ في السخن خلاف الأولى   والصبر كي يرد منه أولى

يقول : ومن آدابه ترك النفخ في الطعام ، قال عبد الله بن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ في طعام ولا شراب ، ولا يتنفس في الإناء ، كما تناول الشرح بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وتفسيرها ففي تعليق على قول الناظم(٨):

وقدمن فاكهة في الوضع   قبل الطعام لحصول النفع

يورد الآية الكريمة وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون . وعند ذكره لقول الناظم(٩)

والأكل بالثلاثة الأصابع   إن تكف أو زد في طعام مايع

يعرض ما جاء في الكشاف : من أن الرشيد أحضر طعاماً ، فدعا بالملاعق ، وعنده أبو يوسف فقال : جاء عن جدك ابن عباس في تفسير هذه الآية « ولقد كرمنا بني آدم » جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردها ، وأكل بأصابعه . واحتوى الشرح على بعض الأمور

الفقهية ، ومن ذلك ما نقله المؤلف عن الغزالي في الإحياء ، وهو قوله : واعلم أنّا وإن قلنا إن الأكل على السفرة أولى ، فلسنا نقول الأكل على المائدة منهيٌّ عنه نهي كراهة أو تحريم ، إذ لم يثبت فيه نهي ، وما يقال من أنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهي عنه ، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة ، وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يُحبُّ في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب ، وليس في المائدة إلاّ رفع الطعام عن الأرض ليتيسر الأكل ، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . كما تخللت الشرح مسائل في اللغة والنحو والبلاغة ففي قول الناظم(١٠):

وسرعة الاحضار للطعام   يعد للضيف من الاكرام

يقول الشارح : الضيافات ثمان كما في شرح الأربعين النووية للفاكهاني : الوليمة للعرس ، والخرس للولادة ، والاعذار للختان ، والوكيرة للبناء ، والنقيعة لقدوم المسافر ، والعقيقة يوم سابع الولادة ، والوضيمة طعام المصيبة ، والمأدُبة : المتخذ ضيافة بلا سبب ويقول المؤلف معلقاً على قول الناظم(١١):

واعلم بأن تشهية المزور   أخاه من محاسن الأمور

والأمر إن أريد به القول الطالب للفعل على سبيل الاستعلاء جمع على أوامر ، وإن أريد به الفعل والشأن جمع على أمور . ويقول بعد شرحه لقول الناظم(١٢):

ويكثر السؤال عن تعكف   وهاك معناه بقول منصف

واعلم أن الطلب والسؤال والاستخبار والاستفهام والاستعلام ألفاظ متقاربة مترتب بعضها على بعض ، فالطلب أعمها لأنه يقال فيما تسأله من غيرك وفيما تطلبه من نفسك ، والسؤال لا يقال إلاّ فيما تطلبه من غيرك ، فكل سؤال طلب ولا ينعكس ، والسؤال يقال في الاستعطاء ، فيقال سألته كذا ، والاستخبار استدعاء الخبر وهو أخص من السؤال ، فكل استخبار سؤال ولا ينعكس ، والاستفهام طلب الافهام ، وهو أخص من الاستخبار فإن قوله تعالى « أأنت قلت للناس » استخبار وليس استفهام ، فكل استفهام استخبار ولا ينعكس ، والاستعلام طلب العلم ، وهو أخص من الاستفهام ، إذ ليس كل ما يفهم يعلم بل قد يظن ويخمن ، فكل استعلام استفهام ولا ينعكس . وتناول المؤلف في شرحه بعض الشواهد الشعرية ، والأقوال المأثورة ، ففي أعقاب قول الناظم(١٣):

ومن أتى فليأت بالتواضع   لا قاصدا لأحسن المواضع

يقول ما أحسن ما قيل :

كن فاضلا وأرض بصف النعال   لا خير في الصدر بغير الكمال
من طلب الصدر بلا آلة   صير ذاك الصدر صف النعال

وعند إيراده لقول الناظم(١٤) :

وليس كل من عني بالأكل   يحسن آدابا أتت في النقل

يذكر قول الجنيد مؤاكلة الاخوان رضاع ، فانظروا من تؤاكلون . ثم يورد قول سهل بن عبد الله من لم يحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل . وفي ثنايا شرحه لقول الناظم(١٥) :

وسرعة الاحضار للطعام   يعد للضيف من الإكرام

يقول : كان يقال أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان أميراً قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته للعالم ، والسؤال عما لا يعلم ، وقد يتطرق المؤلف لبعض النواحي الطبية . فحين يورد قول الناظم(١٦) :

وأكل ذي الإيمان في معاء   وكافر في سبعة أمعاء

يقول في ثنايا شرحه : وقال أهل الطب لكل إنسان سبعة أمعاء ، المعدة ثم ثلاثة متصلة بها رقاق البواب ثم الصائم ثم الرقيق ، ثم ثلاثة غلاظ الأعور والقولون والمستقيم وطرفه الدبر . ثم يذكر حكاية طبية حول ذلك ، وهي أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادي ، وقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء منه ، فقال الهندي هو الأهليلج الأسود ، وقال الرومي هو حب الرشاد الأبيض ، وقال العراقي هو الماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الأهليلج يضعف المعدة وهو داء ، وحب الرشاد يرق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء ، قالوا فما عندك يا سوادي قال الدواء الذي لا داء معه ألاّ تأكل الطعام حتى تشتهيه وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه ، فقالوا صدق . وربما تضمن الشرح بعض الوقائع التاريخية وتراجم للشخصيات التي تمر في النظم ، من ذلك ما روي من أن هارون الرشيد

دعا أبا معاوية الضرير ، وصبّ الرشيد على يده في الطست ، فلما فرغ قال يا أبا معاوية أتدري من صب على يدك ؟ فقال : لا ، فقال صب أمير المؤمنين ، فقال يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله وأكرمك ، ومما جاء في ترجمته للسيوطي : وبورك في عمره بحيث وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت من حين ولادته لوفاته كل يوم كرّاساً ، ونقل مثل ذلك عن النووي ، وأعجب منه ما نقل عن ابن الجوزي وزعت مؤلفاته على أيام عمره فكانت كل يوم سبعة كراريس تأليفاً وكتابة . ولم يخل الشرح من بعض الإشارات المتصلة بطبائع الحيوان كقول المؤلف قال أبو الليث في البستان : ويستحب لصاحب الضيافة أن يقول للضيف أحياناً كل من غير إلحاح ، لأن الفرس قد يشرب بغير الصفير ومع الصفير يكون أكثر شرباً والبعير يشرب بغير حداء ومع الحداء أكثر ، فكذلك الضيف إذا قلت له كل كان أهنأ وأشهى ، ولا يلح عليه فإن الإلحاح مذموم . وثمة قضايا أخرى في الكتاب وتعريفات وقصص وأخبار كثيرة متناثرة هنا وهناك ، كقضية الشفاعة الخاصة بالرسول ، وتعريف الفتوة عند الصوفية ، وهي أن يكون العبد ساعيا في أمر معين بأن يقضي حاجته ويترك خصومته ويتغافل عن زلته ويقرب من يؤذيه ويعتذر إلى من جنى عليه . وما إلى ذلك من الأخبار والقضايا . وفي الكتاب طرائف وفكاهات ساقها المؤلف على سبيل الترويح عن النفس ودفع السآمة والملل مع مناسبتها لمقتضى الحال ، فعند حديث المؤلف عن التمر يذكر أن أعرابياً أسر رجلين فخيرهما في العشاء بين اللحم والتمر ، فاختار أحدهما التمر والآخر اللحم فأطعمهما ثم ألقاهما بفناء بيته في ليلة شديدة بردها ، فأصبح آكل اللحم جامدا ، وأصبح آكل التمر تدر عيناه ، وعند كلامه حول البخل والكرم ، يروى عن الستوري أنه كان مزاحاً فحضر دعوة لأحد البخلاء ، فلما رأى القوم قد مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال يا غلام إرفع إلى الصبيان ، فنقل الحمل إلى داخل الدار ، فقام الستوري خلف الحمل ، فقيل له إلى أين ، فقال آكل مع الصبيان ، فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل . وعكس هذا البخيل ابن المبارك ، فقد كان يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ، ويقول : من أكل أكثر أعطيته لكل نواةٍ درهماً ، وكان يعدّ النوى فيعطي كل من له فضل نوى بعدده دراهم ، وذلك لكسر الحياء وزيادة النشاط في الانبساط .

وهذه الاقتباسات والنقول الشائعة في الكتاب لا تعني اختفاء شخصية المؤلف ، بقدر ما تعني اتساع ثقافته وتنوعها ، فشخصيته العلمية ظاهرة في هذا الكتاب ، حيث نراه يحلل ويناقش ويوجه ويصوب ، فعلى سبيل المثال عندما يذكر قصة الأنصاري الذي آثر ضيفه بطعامه وطعام زوجه وصبيانه نراه يقول : قلت هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الطعام

حاجة ضرورية ، لأن العادة أن الصبي وإن كان شبعاناً يطلب الطعام إذا رأى من يأكله ، ويُحمل فعل الرجل والمرأة على أنهما آثرا بنصيبيهما ضيفهما ، ولو كان الصبيان بحاجة ماسة إلى الطعام لوجب تقديمهم على الضيف .(١٧) وفي توضيحه لقول الناظم :

وجاز مع علم رضا ومثله　　　قران تمر لا يجوز مثله

يقول وكذا قرانه أي جمعه تمرتين أي ونحوهما في لقمة (في الطعام المشترك بين جماعة) إلا إذا أوذنوا أو فعلوا ذلك فيجوز ، وهذا معنى قوله ومثله قران تمر لا يجوز الخ ، وفي مسلم عن عمر رضي الله عنهما نهى رسول الله ﷺ أن يقرن بين تمرتين حتى يستأذن أصحابه ، قال النووي : هذا النهي متفق عليه حتى يستأذنهم فإذا أذنوا فلا بأس ، واختلفوا في هذا النهي على التحريم أو الكراهة والأدب ، فنقل القاضي عياض عن أهل الظاهر أنه للتحريم ، وعن غيرهم أنه للكراهة والأدب ، والصواب التفصيل فإن كان الطعام مشتركا بينهم فالقران حرام إلاّ برضاهم .. وإن كان لغيرهم أو لأحدهم اشترط رضاه وجده ، فإن قرن بغير رضاه فحرام .. وإن كان الطعام لنفسه ، وقد ضيفهم به ، فلا يحرم عليه القران ، ثم إن كان في الطعام قلة فحسن ألا يقرن ليساويهم ، وإن كان كثيرا بحيث يفضل عنهم فلا بأس بقرانه ، لكن الأدب مطلقاً التأدب في الأكل ، إلا أن يكون مستعجلاً ويريد الاسراع لشغل آخر ، وقال الخطابي : إنما كان هذا في زمنهم ، وحين كان الطعام ضيقاً ، فأما اليوم مع اتساع الحال فلا حاجة إلى الإذن ، وليس كما قال بل الصواب ما ذكرناه من التفضيل ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لو ثبت السبب وهو غير ثابت ، والله أعلم .

وهكذا نجد شرح المؤلف ثرياً متعدد الجوانب يدل على ثقافة دينية وعربية واسعة في الحديث والتفسير والفقه واللغة والنحو والبلاغة والتاريخ وغير ذلك . ومما يزيد من قيمة هذه المخطوطة اعتماد المؤلف ـ غالباً ـ على المنهج العلمي في توثيق النصوص وجمع الروايات(١٨) والتوفيق بينها وذكر المصادر والمراجع(١٩) . وقد فرغ المؤلف من شرحه لهذه المنظومة سنة خمس وتسعين بعد الألف للهجرة ■

* * *

الهوامش

(١) عندي نسخة كاملة مصورة من هذه المخطوطة ، وهي بخط الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عرفج ، وقد فرغ من كتابتها سنة ست وخمسين ومائتين بعد الألف للهجرة . ومما جاء في مقدمتها : هذا تعليق لطيف أحببت وصفه على نظم آداب الأكل والشرب للامام العلامة النحرير العلم الشهير جدي المذكور إبراهيم بن حسن الحنفي طيب الله ثراه لأبيّن مقاصده وأوضح مزايده على منهل قريب ليقرب تناوله ويكثر تداوله ، فلذا ناسب أن أسميه مفتاح القرب لنظم آداب الأكل والشرب راجياً من الله تعالى المعونة والتوفيق .

(٢) وللشارح مؤلفات أخرى منها شرح تحفة المبتدي ، وهي منظومة في فقه الحنفية لجده الشيخ إبراهيم ، قام المؤلف بشرحها . ومن آثاره أيضاً المنح الوفية باختصار شرح المنظومة العمريطية ، وفي كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل أمين (ص ٥٢٧) ترجمة قصيرة للمؤلف .

(٣) للشيخ إبراهيم بن حسن مؤلفات أخرى منها دفع الأسى في أذكار الصبح والمسا ، وشرح نظم الأجرومية العمريطية في النحو ، وترجمته في كتاب الإعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لرضا كحالة وخلاصة الأثر للمحبي وتاريخ الاحساء لابن عبد القادر وبعض بيوت الملا الأسرة المعروفة بالاحساء تنتمي إلى واضع المنظومة وشارحها .

(٤) ص ٢ / ٧ من المخطوطة .

(٥) ص ٢٠٦ من المخطوطة .

(٦) ص ٢٠ .

(٧) ص ٣٦ .

(٨) ص ١٩٢ .

(٩) ص ٣٣ .

(١٠) ص ١٧٥ .

(١١) ص ١٥٧ .

(١٢) ص ١٦٣ .

(١٣) ص ٢٠٤ .

(١٤) ص ٧ .

(١٥) ص ٦٣ .

(١٦) ص ١٧١ .

(١٧) ص ١٢٥ .

(١٨) في ص ٣١ من المخطوطة مثال لطريقة المؤلف في محاكمة الرواية للأحاديث الشريفة ، والتوفيق بينها ، ومناقشة درجة الاسناد .

(١٩) ذكر المؤلف في شرحه أكثر من خمسة وأربعين مرجعاً ، ولعل بعضها لا يزال مخطوطا حتى الآن ، ومن ذلك شرح جوهرة اللقاني وعقود المشائخ لعبد الوهاب الشعراني وكتاب الغصب لابن نجيم ومختصر القوت لابن ظفر والفوائد الفقهية للطوسي ، ومنظومة ابن العماد الأقفهي في آداب الأكل وقد طبعت هذه المنظومة محققة ، ويبلغ عدد صفحاتها بفهارسها حوالي تسعين صفحة من الحجم المتوسط .